

تلك القصة العذبة (كما بلغة العنوان) والتي صدرت طبعتها الأولى، في كتاب من القطع الصغير، قبل سبعة وعشرين عاماً من كتابة السطور هذه، مازالت اليوم قادرةً على تجديد روح الذكرى في قرائها، إن لم تكن تحفز على إطلاقها في بعضهم للمرة الأولى، وتحيلهم إلى المساحات الشاسعة التي تفصلهم عن عُذوبة عالم الفرح الصغير، ولو كان محاطاً بمظاهر القهر والقمع والظلم، وبكل ما يبذل براءة الصبا، ذلك العالم الذي يحاول أن يحقق توازنه، في التصدي المباشر للحيف الذي يحيق به، لأن الظلم أكبر بكثير من أن تنصفه أي عدالة، يحرص كثيراً على تحقيقها فيها، في مقارعة ستكون أكثر تكفوفاً بمرور الزمن الذي يصنع من الإيماء النبيلة مارداً عتياً أمام وحش القهر الذي يتضخم بدوره، \S\S لا تحقق «تلك» الواردة في عنوان القصة – والتي تضع أحداثها السارد في لا موضع الذي كان صبيّاً وقت الحدث، ولم يعد كذلك أثناء السرد – فجوتها الزمنية المتمثلة بالسنين التي أمست تفصلها عن الحدث المروي والتحويلات التي حلت بالشخصية التي تنتظر الآن من بعد وإدراك الزمن الحالي للسرد والمتشبت في تفاصيله بالطفولة المروية فحسب. تعمق من المسافة العاطفية القائمة بين شخصية السارد، وبين «تلك» المرأة الوردية التي لم تكن، وحتى قبل الشروع في قراءة القصة، إلا على «تلك» المبعدة من السارد، أو لعل «تلك» تكون المحصلة النهائية التي تصل إليها الشخصيتان (السارد والمسروود عنه) كمصير حتمي مترسخ في ذهن الأول وتوقعات القارئ، حيث يتسق هذا الاستنتاج مع المؤشرات التي تبوح بها خاتمة القصة. إلا أن كثيراً من المؤشرات تدعو إلى الاستنتاجين المتقدمين معاً: أي أنه وبعد قراءة القصة، نصل إلى أن «انتصار»، أو «المرأة من فصيلة الورد»، ستظل دائماً بعيدة (وإن دنت منه جسدياً وبكافة تشكلاتها الشخصية في السرد) حتى في الأجزاء التي تتألف فيها روحيهما معاً، وكما ستكون بعيدة أيضاً بعد اختفائها الغامض إلى الأبد في نهايتها، ويظل تحقق ظهورها في ذاكرة السارد صبيّاً وكبيراً على مستويين مختلفين من وعي شخصيته. \S\S \S\S لم تكن انتصار امرأة بالمعنى الحرفي، بل كانت صبيةً تكبر السارد بسنوات أثناء سير الحدث (وربما اكتسبت مكانة المرأة لهذا السبب)، إلا أنها كانت تظهر وتتصرف كامرأة حقيقية بالنسبة إليه، المرأة الأكثر تشكلاً واكتمالاً عن باقي النساء اللاتي من حولهما، ولعلها وجه الفرح الأوحى في حياة الصبي المكود العامل في مصنع راحة الحلقوم. وما يمنحها تلك المرتبة الاستثنائية كونها الصبية الوحيدة في مصنع يكتظ فيه الصبية الذكور والنساء الأخريات المُسنات. والمفارقة الطاعنة هي أن يعمل هؤلاء معاً في مصنع لسكاكر راحة الحلقوم، ولا يجترونها من ورائه إلا مرارة (في الحلقوم؟) تصاحب مراحل عملهم الشاق. \S\S \S\S من هنا تأتي دعوة الصبي (السارد حينما كان صبيّاً) لمشاركتها لحظة سعادة مبتغاة: حفلة عرس لإحدى قريباته تقام في فناء بيته. إنه الخبر السار الذي يتحرق الصبي السارد ليخبره فانتنه انتصار منذ مطلع القصة، وهو الجزء الذي يتكرر استدعاؤه في أكثر من جزء كحدث مفصلي، لا يكتسب أهميته القصوى من ظاهره إلا بعد استيعاب دلالاته لاحقاً. إذ يرغب الصبي للحظة الفرح المرجوة أن تكون جزءاً من عالميهما الآخر الليلي الاحتفالي ذلك الذي يكونان فيه منفصلين وبعيدين (بالمعنيين المادي والنفسي) عن عالم الكد الصباحي البغيض الذي لا يملكان سيطرة عليه، حيث هما ضحيتان لكيان المصنع القامع، وأن تكون هي جزء من عالمه الداخلي، هذا الذي سيبدو أكثر سياقياً وأكثر استحفاً لهما معاً بالمقارنة مع الوضع الشاذ الخارج عن سياق الطفولة والفرح في عملهما. هل هي رغبة أخرى من الصبي في أن يرى «تلك المرأة» في حلة أخرى أكثر لباقة ولياقة من فتاة المصنع العاملة الكادحة، أكثر أنوثةً وعذوبةً؟ \S\S \S\S إنها تفلح حقاً في الظهور بذلك المظهر الآخر الشفيف، قادمة إلى بيت العرس بصحبة أبيها، أي مُحَمَّلة بكل الدلالات التي يجسدها اللون في حضورها الملفت، وسط تراجع الرقصات المحتفيات، الأقل منها براعة ومهارة وخروجهن الواحدة تلو الأخرى من الحلبة، واستثارتها بجدارة مستحقة لها، وطلب الأخريات منها مواصلة الرقص. إنها لحظة السحر حيث الورد «الحمراء» تتراقص في لحظة فرح نادرة أمام العيون المتسعة بالإكبار، وخصوصاً عينا الصبي اليافع الذي يختلس النظرات من بعد، وهو يكف الأطفال المتسلقين لجدران البيت عن التلصص. \S\S \S\S ولأن هؤلاء المُحتفلين لا يمكن أن يفرحوا ولا يليق بهم الفرح حسب ما تذكره أم السارد، فلا بد أن تأتي امرأة حامل من المدعوات الرقصات وتعلن في نهاية السهرة عن فقدان أسوارتها فتفسدها، أثناء التفتيش الجماعي، حين يُكتشف وجود الأسوارة لديها، فإنها تُطرد من الحفل والبيت أخيراً، ويُقْلَهُ أبوها في عودتها، ناسيةً أو تاركةً عن قصدٍ شالها الصوفي في البيت مؤكداً حضورها المعنوي في غيابها الجسدي. من الجلي أن هذا السقوط المجازي من القمة إلى القاع، من كونها صانعةً للفرح إلى سارقتها، يتراءى بقسوةً أمام ناظري الصبي الصامت العاجز عن إبداء تعاطفه نحوها أو الدفاع عنها أمام ذلك الجمع، وإن كان قد فعل فإن مبعث ذلك الدفاع سيكون عن الأنا تلك التي أردت لانتصار الحضور، وتحقيق ذات الإعجاب (الذي شرعت حقاً في اكتسابه في الجزء الأول من الحفل أثناء الرقص)، وسيرى أن إدانة انتصار هي في الحقيقة إدانة ضمنية له هو الذي دعاها إلى الحفلة ستستعري دفاعاً وتفسيراً مقبولاً من طرفه، لكن أتى يتأتى له

تقديم ذلك إزاء دليل السرقة الظاهري. \S\S\S تتوازي حادثة السرقة تلك، في تجسيدها لفكرة تلاشي لحظات الفرح القصيرة بما يكرها من أحداث، مع حادثة أخرى داخلية في المصنع، إذ يعبت العاملون بروح طفولية بأكياس السكر (انتصار تلحس السكر الملقى على ثياب الصبي، وهو يلحس السكر العالق في ثيابها في تبادل دلالية ملفتة) يوم تغيب صاحب العمل، كما يطلق العاملون عليه، ممارسين مساحة ضيقة من مرح الحرية قلما استطاعوا ممارستها في ذلك المكان السجن. وحين يشج الرجل الثور، مُحَمِّلاً إياه تبعات ذلك العبث البريء، تنتفض انتصار وتهاجم الرجل الثور دفاعاً عن صابر، وهو فعلياً دفاع عن جميع المُنتفعين بلحظة الفرح الوخيمة من أقرانها العاملين في المصنع، مما يؤدي إلى ضربها من قبل الحُرَّاس وطردها من المصنع، وهذه تكون المرة الثانية التي يشهد فيها الصبي وردته تدهس دونما أن يكون قادراً على حمايتها. \S\S\S كان لابد لانتصار أن تلقي نظرة وداع لصبيها المكسور في نهاية المطاف، ولعله أيقن بحتمية ذلك الدواع، إذ تكتشف المرأة الحامل لاحقاً في ليلة العرس ذاتها أن إسوارتها، تتطابق مع إسوارة انتصار التي ظلمتها، فتوكل للصبي إعادتها لها (تجنباً للخرج)، ويفعل ذلك بعد طردها من المصنع أثناء مشيهما. يعيدُ إضافةً إلى الإسوارة، الشال الأبيض الذي تركته (أو لم يتيسر التقاطه) بعد طردها من الحفلة. ولعلَّ الشال الأبيض كان إشارة موحية ودلالة ضمنية إلى نقاء وبراءة انتصار أخفق المحتفون في التقاطها. \S\S\S وكأنا بإعادته لممتلكاتها تلك يمنحها إشارة أخيرة بضرورة رحيلها، بل لإلحاح الموقف (أو الموقفين في هذا السياق)، هي المتوشحة بفتنة البراءة (كما في حادثة اتهامها بسرقة الاسوارة) والمتحلية بروح العدالة (كما في تصديها الشجاع للرجل الثور دفاعاً عن صابر). هي ليست إذاً في محلٍّ يمكنها من تحقيق تلك القيم العليا، وهذا المكان لا يكتسب استحقاقية كونها تحاول أن تجعله منه مكان أفضل مما كان عليه، في ظل عجز الصبي السارد عن كف الأذى عنها، وهو دور أكبر من يُتوقع منه، إلا أن السارد يستشعر بشيء من الذنب إزاء عجزه وعدم رضاه من دوره الطبيعي كراصد للأحداث غير قادر على توجيهها أو تغيير من مسارها. \S\S\S الظلم إذاً في كل مكان: في المصنع وكل ما يحمله من رموز سُلطوية ضد الطبقة الكادحة العاملة من بسطاء الناس وفقرائهم. إلا أن الظلم الذي يمارسه أبناء الطبقة ذاتها على بعضهم بعضاً أكثر بشاعة في جوهره من الظلم الأول، كما يتجسد في اتهامات السرقة التي أُخذت على ظاهرها، وما تشكل تلك الحادثة من مظالم واتهامات باطله لعلها تمثل ما يكيله مجتمع أو أحد أفراده على الإنسان فتدفعه إلى الرحيل. فالمرء الذي يتعرض إلى ظلم من الفئة التي يفترض انتمائه لها، لا يجد أفضلية لهذا المجتمع من الظلم الذي يتعرض إليه من قبل سُلطات أخرى. \S\S\S لكن أتتحقق انتصار نصرها المعنوي برحيلها المُوحش، وتودع ذكراها حاضرةً في خلد السارد ليُحكى عنها لسنين من بعد، وتستحوذ على الحنين إلى السرد، ويكون بذلك الرحيل أكثر بلاغةً من البقاء،